



■ أكرم البنـي ■

فاجأته الثورة مثلما فاجأ الجميع، شعر اليساري المناهض للاستعمار والمناضل العنيـد ضد الاستغلال، بأنه غريب عن جمـوع المتظاهـرين التي تهـتف للحرية والكرامة، كان يـشغلـه التـسـاؤـلـ عنـ غـيـابـ الشـعـارـاتـ المعـادـيةـ لـالـإـمـبـرـيـالـيـةـ وـالـصـهـيـونـيـةـ، أـسـاسـيـ الدـاءـ وـالـبـلـاءـ، وـأـثـارـ اـسـتـغـارـاهـ طـابـعـ الـحـشـودـ الـتـيـ تـجـعـلـ منـ الـمـسـاجـدـ مـرـاكـزـ اـنـطـلـاقـهـ، وـالـاـخـلـاطـ الـطـبـقـيـ الـعـجـيبـ فيـ اـحـتـجـاجـاتـ تـضـمـ فـئـاتـ اـجـتـمـاعـيـةـ تـعـارـضـ مـصـالـحـهـ الـاـقـتـصـادـيـةـ، تـاهـ فيـ الـبـحـثـ عنـ إـجـابـاتـ، أـلـاـ يـوـجـدـ تـرـابـطـ بـيـنـ هـذـاـ وـذـاكـ؟ـ!

ألم تكن طبقة المستغلين والأغنياء ربيبة الاستعمار؟!

وألم تعلـمـهـ المـدـرـسـةـ الـيـسـارـيـةـ، الـمـارـكـسـيـةـ أوـ الـقـومـيـةـ، أـنـ السـلـطـةـ وـالـوـطـنـ شـيـءـ وـاـحـدـ، وـأـنـ كـلـ مـنـ تـظـاهـرـ ضـدـهـ أـوـ اـعـتـرـضـ عـلـيـهـ، هوـ خـائـنـ لـبـلـدـهـ وـيـخـدـمـ، شـاءـ أـمـ أـبـيـ، الـمـخـطـطـاتـ الـاـسـتـعـمـارـيـةـ؟ـ!

هلـ لـثـورـتـيـ تـونـسـ وـمـصـرـ، حـيـثـ الـأـنـظـمـةـ حـلـيفـةـ لـأـمـيرـكـاـ، مـتـوهـماـ أـنـ الشـعـوبـ ثـارـتـ هـنـاكـ ضـدـ الـإـمـبـرـيـالـيـةـ وـأـعـوـانـهـاـ فيـ الـمـنـطـقـةـ، حـلـ بـسـمـاعـ هـنـافـاتـ كـفـاحـيـةـ اـنـتـظـرـ كـثـيرـاـ سـمـاعـهـاـ، لـكـنـ الـجـمـاهـيرـ الـتـيـ طـالـمـاـ اـنـحـازـ لـهـاـ وـدـافـعـ عـنـهـاـ، خـذـلـتـهـ وـرـفـعـتـ شـعـارـاتـ الـحـرـيـةـ وـالـكـرـامـةـ الـإـنـسـانـيـةـ كـقـيـمـتـيـنـ أـهـمـ، وـالـأـنـكـيـ حـيـنـ صـدـمـتـهـ الـثـورـةـ السـوـرـيـةـ وـاجـتـرـحـتـ حـضـورـهـاـ مـنـ رـحـمـ مـنـظـومـةـ تـحـكـمـهـاـ الـشـعـارـاتـ الـقـومـيـةـ وـمـوـاجـهـةـ الـمـخـطـطـاتـ الـإـمـبـرـيـالـيـةـ وـالـصـهـيـونـيـةـ وـتـحـرـيرـ الـأـرـضـ الـمـحـتـلـةـ.

ذـلـكـ الـيـسـارـيـ تـاهـ فـيـ الـبـحـثـ عـنـ مـوـقـعـ قـدـمـ، فـلـاـ يـمـكـنـهـ أـنـ يـدـافـعـ عـنـ الـفـسـادـ وـالـتـمـيـزـ وـسـيـاسـةـ الـإـفـقـارـ، فـهـيـ نـقـيـضـ الـعـدـالـةـ الـاجـتـمـاعـيـةـ الـتـيـ يـنـادـيـ بـهـاـ، وـلـاـ يـمـكـنـهـ أـنـ يـتـرـدـدـ فـيـ دـعـمـ سـلـطـةـ عـنـوـانـهـاـ الـشـعـارـاتـ الـوـطـنـيـةـ وـالـقـومـيـةـ، وـهـيـ شـعـارـاتـ حـيـاتـهـ، حـتـىـ لـوـ اـعـتـرـتـهـ الشـكـوـكـ بـأـنـ مـاـ تـدـعـيهـ هـذـهـ السـلـطـةـ عـنـ الـمـقاـومـةـ وـالـمـمـانـعـةـ وـالـأـخـطـارـ الـخـارـجـيـةـ هـوـ مـجـرـدـ وـسـيـلـةـ لـتـعـزـيزـ حـكـمـهـاـ وـأـمـتـيـازـاتـهـ، وـلـاـشـفـالـ مـجـتمـعـاتـهـ عـنـ الـأـسـبـابـ الـحـقـيقـيـةـ لـلـقـهـرـ وـالـفـقـرـ وـالـتـخـلـفـ.

يـسـتـهـجـنـ بـشـدـةـ أـنـ لـاـ تـكـونـ قـضـيـةـ الـفـقـرـ وـالـعـوـزـ وـالـبـحـثـ عـنـ فـرـصـ الـعـمـلـ هـيـ مـاـ حـرـكـ الشـارـعـ، وـأـنـ مـاـ يـطـالـبـ السـوـرـيـوـنـ بـهـ لـيـسـ لـقـمـةـ الـعـيـشـ، بـلـ رـفـعـ الـقـهـرـ وـالـإـذـلـالـ وـحـقـهـمـ فـيـ الـكـرـامـةـ الـإـنـسـانـيـةـ، وـتـسـاءـلـ بـحـرـقـةـ، هـلـ تـرـيـدـوـنـ إـعـادـةـ وـجـوـهـ الـظـلـمـ وـالـاـسـتـغـالـ وـعـهـودـ الـإـقـطـاعـ وـالـبـرـجـواـزـيـةـ، وـالـتـفـريـطـ فـيـ مـاـ حـقـقـتـهـ الـطـبـقـةـ الـعـاـمـلـةـ وـفـقـرـاءـ الـفـلـاحـيـنـ مـنـ مـكـاـسـبـ؟ـ!

يـحـرـجـهـ الـوـقـوفـ مـعـ ثـورـةـ يـعـتـقـدـ أـنـهـاـ لـاـ تـشـبـهـ مـاـ رـسـمـتـهـ مـخـيـلـتـهـ، عـنـ طـبـقـةـ عـاـمـلـةـ وـفـلـاحـيـنـ فـقـرـاءـ يـتـمـرـدـونـ عـلـىـ الـظـلـمـ وـالـاـسـتـغـالـ وـالـاـسـتـعـمـارـ، وـيـلـوـمـ الـظـرـوفـ الـبـائـسـةـ الـتـيـ تـجـبـهـ عـلـىـ الـاـخـتـيـارـ بـيـنـ الـاـنـحـيـازـ إـلـىـ النـاسـ وـدـعـمـ مـطـالـبـهـمـ الـمـشـروـعـةـ فـيـ الـحـرـيـةـ

والكرامة، وبين الوقوف مع أهل الحكم والعمل على تبرير ارتکاباتهم ونشر ذرائعهم عن المؤامرة والعصابات المسلحة والجماعات السلفية!

يستطيع أن يقنع نفسه بفكرة المؤامرة، ومحاکاة الدعاية الرسمية بأن ما يجري هو أفعال لمتأمرين ومتآمرين يرتبطون بأجندة خارجية، فأمامه اصطفاف «استعماري» واسع مناهض للسلطة، يضم أهم البلدان الإمبريالية والرجعية المدرجة في قائمة أعدائه، لكن عن أي مؤامرة يمكنه أن يتحدث حين تشارك غالبية الناس فيها وحين يرى العنف السلطوي وأسلحة «الصمود والتصدي» تقصف أماكن السكن وتدمير المدن والأرياف، دون أي مسؤولية أخلاقية، وكان مناهضيها هم كائنات دونية لا تنتمي إلى صنف البشر أو الأرواح الأدمية؟

لكن ما يريح هذا اليساري التائه، هو أن تکثر الثورة، التي طالما بشر بها، من أخطائها كي لا تفضح انهزاميته وتنصله من واجبه الإنساني بالوقوف ضد فتك وتنكيل لا يعرفان حدودا، فليس من سبب غير ذلك يمكنه أن يبرر سلبية وانهزاميته، لا استحضار مفهوم الفوضى الخلاقة المدان لأميركيته، في إشارة إلى الإرباكات والتورات التي تعاني منها الثورات العربية كي يطعن بمشروعيتها وأيّها جالبة للاضطرابات والفوضى والتذمر، ولا الاتكاء على التزعّمات الأنانية والانفعالية لقوى المعارضة، والسخرية من خلافاتها وأمراضها ومشكلاتها، وطرح سؤال خبيث وإن بروح الحريص على الثورة ومسارها، عن المستقبل الذي تعد به مع ازدياد دور القوى الإسلامية بتنوعاتها، وتنامي خطورة المشروع السلفي الذي يحمله بعضها على الديمقراطية وبنية الدولة والمجتمع.

لقد أخضعت الثورة السورية حملة الفكر اليساري للامتحان، مختبرة مدى وضوح خيارهم الديمقراطي وعمق التزامهم بمصالح الناس وحقوقها، وأعادت فرزهم بطريقة حادة، بين من لا يزال عاجزا إلى الآن عن إحداث قطيعة معرفية مع الماضي والتحرر من دور التعبئة الآيديولوجية، وتأسره العقلية والطرائق القديمة عن أولوية مقاومة أجندة القوى الخارجية ومخططاتها والحفاظ على ما هو قائم كمكتسب وطني وقومي، وكان هزائمنا المتعددة وحالنا التي تثير الشفقة لم تقل كلمتها بحق هذه العقلية! وبين من بدأ يقنع بأن ما يسمى «الشرعية الثورية» هي وراء توسيع العنف والقمع العاري وحالة التردي والانحطاط التي وصلنا إليها، وأن الشعارات الآيديولوجية، عن مركبة القضية الفلسطينية وأولوية مواجهة الصهيونية وتحرير الأرض، ومحاربة المؤامرات والأخطار التي تحيكها الدوائر الاستعمارية، ليست أكثر من حسان رابح امتهنه الأنظمة القومية جدا والوطنية جدا من أجل تعزيز أسباب سلطانها وفسادها وامتيازاتها، على حساب مصالح الناس ورغمما عنهم.

وعموما، لا ضير في أن تكون المسألة الوطنية وتحديات الخارج منطلقا لفكر سياسي ما ومستقرة، لكن المشكلة حين توضع إشارة مساواة بين الوطن والسلطة، ويجري اعتبار أي نقد لاستبداد هذه السلطة وفسادها مساسا بمقومات البنية الوطنية وقدرة المجتمع على المواجهة، بما يسوغ للسلطة هدر حقوق الناس البسيطة والتنكيل بكل من يعترض على سياساتها أو يناديها.

الثورة السورية تقول بأنه ليس يساريا من يتذكر لحقوق الناس وحرياتها، من يخون الموقف الصائب من الاستبداد بوصفه المسؤول الرئيس عما نعيشه الآن، من لا يستند إلى ما يجري كي يؤسس ليسار جديد ينطلق من حرصه على حقوق الناس وليس على الآيديولوجيا، ويشدد من دون كلل أو تهاون على أن الأعلى والأجل في دنيانا هو الكائن الإنساني الحر، وليس الشعارات البراقة والأفكار مهما تبلغ من رقي ونبل.

المصادر: